مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد 09/ العـدد 02/ ديسمبر (2025)، ص.ص. 421-429

رهانات النّقد الأكاديميّ الجزائريّ المعاصر المكتوب باللّغة الفرنسيّة وقضاياه

The Stakes of Contemporary Algerian Academic Criticism Written in French, and its issues

علّام عبد القادر*
abdelkader.allem@univ-tiaret.dz
جامعة ابن خلدون (تيارت)
مخبر الخطاب الحجاجي، أصوله ومرجعيّاته وآفاقه في الجزائر جامعة ابن خلدون (تيارت)
(الجزائر)

أ.د. كبريت علي
kebrit14@yahoo.fr
جامعة ابن خلدون (تيارت)
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2025/07/03 تاريخ القبول: 2025/10/10 تاريخ النشر: 2025/12/02

ملخص:
تهدف هذه الدّراسة إلى استعراض واقع النّقد الأكاديميّ الجزائريّ المكتوب بالفرنسيّة، مع التّركيز على عوامل النّشأة والتّطوّر، بالإضافة إلى التّحديّات الّتي يواجهها من خلال المقاربة النّقديّة المنهجيّة للأدب الجزائريّ المكتوب بالفرنسيّة المتأثّرة بالمناهج الفرنسيّة، على إثر ظهور أقسام اللّغة الفرنسيّة في الجامعات الجزائريّة بعد الاستقلال، إلّا أنّ التّحولات الّتي شهدها نظام التّدريس في التّعليم العاليّ في السّبعينيّات، والدّاعية إلى تحويل الفرنسيّة إلى لغة أجنبيّة أدّى إلى استبعاد النّقد الأدبيّ والأدب المقارن، وهذا لم يمنع من ظهور أعمال نقديّة أكاديميّة باللّسان الفرنسيّ تؤسّس للانفتاح على المناهج النّقديّة الحديثة، رغم افتقارها إلى نظريّة نقديّة خاصّة، وتأخّرها مقارنةً بالنّقد المكتوب بالعربيّة.

كلمات مفتاحية: نقد أكاديميّ جزائريّ؛ نقد مكتوب بالفرنسيّة؛ تلقّي النّقد المنهجيّ؛ هويّة النّقد؛ فرانكفونيّة .

Abstract: This study examines Algerian academic criticism in French, tracing its origins, evolution, and challenges. It highlights how, despite initial growth influenced by French methodologies and the establishment of French departments post-independence, policy shifts in the 1970s led to French being treated as a foreign language, sidelining literary criticism. Nevertheless, critical works in French emerged, embracing modern approaches, though they lacked a unique critical theory and lagged behind Arabic criticism.

Keywords: Algerian academic criticism: criticism written in French; Reception of methodological criticism; Identity of criticism; Francophonie.

تمهيد :

لطالما كان النّقد الأكاديميّ في الجزائر بعد الاستقلال، بما اكتسبه من أدوات تحليليّة ومنهجيّة صارمة، ركيزةً أساسيّة في فهم وتطوير الآداب المختلفة، حيث تتقاطع مسارات لغويّة وفكريّة متعدّدة في السّاحة الثّقافيّة، جعلتِ النّقد الجزائريّ الأكاديميّ يولي اهتماما أكبر بالأدب المكتوب باللّغة الفرنسيّة؛ خاصّة لدى النّخبة الفرانكفونيّة في ظلّ تنامي ظاهرة الثّنائيّة اللّغويّة، باعتباره إرث نشأ وتطوّر في سياق تاريخيّ كولونياليّ معقّد، يعكس مدى تأثّره بالثّقافة واللّغة الفرنسيّة الدّخيلة، دون إغفال تلك المساعي الجادّة في الحفاظ على هُويّته الجزائريّة.

*المؤلف المرسل.

هذا المقال يستكشف بدايات النّقد الأكاديميّ الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة، ويستجلي تلك التّحديّات الّتي واجهها في كثير من الأصعدة، ومدى تفاعله مع النّظريّات والمناهج النّقديّة الحديثة، مُقارنةً بالنّقد الأكاديميّ المكتوب باللّغة العربيّة، وتسليط الضّوء على أبرز الإسهامات والإشكاليّات الّتي طبعت مساره .

1 ـ التّأسيس لنقد أكاديميّ جزائريّ بعد الاستقلال

ترجع الجذور الأولى للمقاربة النّقديّة المنهجيّة للأدب الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة، والمستندة على الرّكائز العلميّة والمعايير الأكاديميّة، إلى المرحلة الّتي تَمَّ فيها تأسيس أقسام اللّغة الفرنسيّة في الجامعات الجزائريّة خلال عقد السّادس من القرن الماضي، مباشرة بعد حصول الجزائر على استقلالها عام 1962 .

فمع انطلاق المسيرة التّعليميّة في الجزائر المستقلة، سارعتِ الجامعات الوطنيّة إلى إنشاء أقسام متخصّصة في اللّغة الفرنسيّة وآدابها، ليس فقط لتدريس اللّغة ذاتها، ولكن أيضًا لتحليل الإنتاج الأدبيّ الجزائريّ المكتوب بالفرنسيّة تحليلًا نقديًّا منهجيًّا. وقد مثّل ذلك منعطفًا مهمًّا في التّعامل مع هذا النّوع من الأدب، حيث انتقل من القراءات الانطباعيّة والخطابيّة إلى الدّراسات المعتمِدة على مناهج نقديّة واضحة، كالبنيويّة والتّحليل التّاريخيّ والتفسيّ، وغيرها من المناهج الّتي كانت سائدةً في الحقل الأكاديميّ آنذاك .

كما ساهمت هذه الأقسام في تكوين جيل من النّقّاد الأكاديميّين وغيرهم من الجزائريّين الّذين أثروا المكتبة النّقديّة بأبحاثهم ودراساتهم، والّتي ركّزت على خصوصيّات الأدب الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة، من حيث مضامينه الّتي تعبّر عن الهُويّة الوطنيّة وتاريخ المقاومة والتّحوّلات الاجتماعيّة، وأيضًا من حيث أشكاله الفنّيّة وتفاعله مع الثّقافتَين العربيّة-الإسلاميّة والغربيّة. وهكذا، أصبح هذا الأدب موضوعًا للبحث العلميّ الجاد، ممّا أسهم في تطويره وتأصيله ضمن الخريطة الأدبيّة العالميّة، وفي هذا الصّدد تشير كريستيان عاشور إلى "أنّ برامج ليسانس الآداب في الجامعة الجزائريّة بعد الاستقلال مباشرة "1962-1968" كانت في معظمها مشابهةً إلى حدٍّ كبير للبرامج الفرنسيّة، يدرّسها أساتذة فرنسيّون باستثناء قلّة من الأساتذة الجزائريّين"[1]؛ ويتطلّب هذا المنظور التّاريخيّ استحضار السيّاسات اللّغويّة الجزائريّة بعد الاستقلال، والإصلاحات المرتبطة بتعزيز الهُويّة الوطنيّة، مع الإشارة إلى التّحديّات الّتي ظهرت خلال هذه العمليّة، فمنذ "عام 1968، أطلقتِ الوزارة إصلاحًا جذريًّا متعدّد المراحل للدّراسات العليا، في محاولة لإعادة تشكيل هُويّة الأدب الحديث وسط صراع لغويّ مُحتدم. فقد تفاقم منذ 1962 التّناقضُ الحادّ بين الفرنسيّة -لغة المستعمِر-، في مقابل العربيّة الفصحى -لغة استعادة الهويّة-، وهو صراعٌ ترك أثره العميق على مسار التّكوين الأكاديميّ من مرحلة التّعليم الابتدائيّ حتّى الجامعيّ. وفي خِضمّ هذه المعركة الثّقافيّة، فرض الأدب الجزائريّ المكتوب بالفرنسيّة نفسه بقوّة ضِمن المناهج الجامعيّة، حاملًا معه إرثَ كُتّابه المؤسّسين الّذين تحوّلوا - رغم ما يثيرونه من جدل- إلى كلاسيكيّات لا يُمكن تجاوزها، ضمن مشروع التّحديث الوطنيّ"[2].

غير أنَّ اللّافت في هذا السيّاق هو طبيعة تلقّي الأدب الفرانكفونيّ في الفضاء الجامعيّ، حيث يُختزل في أغلب الأحيان إلى مجرّد ناقل لغويّ أو وثيقة تاريخيّة، "فتَصميم المناهج الدّراسيّة -خلال السّنوات الثّلاثة الأولى من التّعليم الجامعيّ- يُخضع النّصوص الأدبيّة لاستعراض زمنيّ يُغطّي العصور كافّةً، أو ينحصر أحيانًا في نوع أدبيّ ضيّق...، في غياب رؤية نقديّة موحّدة، ممّا يجعل العمليّة التّعليميّة فارغةً من أبعادها التّحليليّة والتّأويليّة، ويُعيق بناء رؤية نقديّة متكاملة لدى الدّارسين"[3] .

2 ـ عوامل تأخّر النّقد المكتوب باللّغة الفرنسيّة في الجامعة الجزائريّة

من العوامل الّتي ساهمت في إهمال الدّراسة النّقديّة للأدب الجزائريّ المكتوب بالفرنسيّة، ذلك القرار الّذي اتّخذته وزارة التّعليم العالي الجزائريّة في مطلع السّبعينيّات (ق20م)، حيث استعانت بخبراء فرنسيّين لإعادة هيكلة برنامج اللّغة الفرنسيّة - الّذي لم يعد يُسمّى الأدب الحديث- ، وتحويل مساره من دراسة الأدب إلى التّركيز فيه على تعليم الفرنسيّة كلغة أجنبيّة، وقد برّرتِ الوزارة هذا التّوجّه بذرائع مرتبطة بمستوى الأداء، كتراجع المعايير وتراجع الكفاءة اللّغويّة، وانخفاض المستوى اللّغويّ للطّلاب، وضعف تمكُّنهم من الفرنسيّة، وهي حجج لم تكن مؤكّدة آنذاك. كما شمل هذا التّغيير إلغاء تدريس النّقد الأدبيّ والأدب المقارن، باعتبارهما مادّتَين غير مجديتَين، في خطوة رأى كثيرون أنّها استجابة لطبيعة الأدب الجزائريّ النّاطق بالفرنسيّة، الّذي كان يُنظر إليه على أنّه إشكاليّ من النّاحية الهويّة[4] .

وللمؤرّخ "Jean Déjeux" ما يُبرّر به عن هذا الرّاهن اللّغويّ المتعدّد في إطاره الأكاديميّ، إذ أعدّه مكسبًا مهمًّا نحو تعزيز حضور اللّغة الفرنسيّة في الجامعة الجزائريّة رغم جهود التّعريب المتأخّرة، وذلك من خلال تلك الإجراءات الّتي اتّخذها النّظام السيّاسيّ، قائلًا: "جاري تنفيذ التّعريب ولكن التّقرير العامّ للخطّة الرّباعيّة 1970-1973 ينصّ على أنّ اللّغة الفرنسيّة سوف تحتفظ بمكانة مهمّة كلغة ثانية في التّعليم، وأنّ ممارسة الثّنائيّة اللّغويّة سوف تستمر، على الأقل خلال فترة انتقاليّة. وتدعو لجنة إصلاح التّعليم أيضًا إلى استخدام اللّغة الفرنسيّة كلغة أجنبيّة الأولى "من أجل الاستفادة القصوى من اتّصالنا التّاريخيّ بالثّقافة الفرنسيّة"[5] .

ولتحليل مدى تأثير وانتشار النّقد الأدبيّ باللّغة الفرنسيّة في الجزائر، وخاصّةً في المجال الأكاديميّ، وفي ظلّ المناخ الثّقافيّ والأدبيّ السّائد، يقتضي التّصوّر العلميّ والموضوعيّ مقارنةَ هذا النّقد بما أنتجته الحركة النّقديّة المكتوبة باللّغة العربيّة في البلاد، وبالاطّلاع السّريع على الإنتاج النّقديّ العربيّ في الجزائر، يُمكن تكوين صورة واضحة عن حجم التّراكم النّقديّ المتحقّق في هذا المجال، كما "تجعلنا ندرك إدراكًا تامًّا أنّ المشروع النّقديّ الجديد حقّق الانسجام الفِكريّ في الرّؤية العِلميّة في مدّة زمنيّة قِيّاسيّة، ما لم يحقّقه النّقد الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة، وهذا على الرّغم من وجود ظروف صعبة يستحيل العمل فيها، فالنّاقد المعرَّب استطاع في ظرف وجيزٍ أن يتعلّم اللّغة الفرنسيّة، ويُتقن استعمالها ويناقش بها اللّجان العلميّة، ويفهم ويُترجم حمولتها إلى اللّغة العربيّة، ويستوعب التّفاصيل الدّقيقة بين هذا المصطلح أو ذاك، ويتصدّى إلى أهمّ النّظريّات الّتي اعترف الباحثون الفرنسيّون بتعقيداتها"[6] .

3 ـ تأخر النّقد الأكاديميّ المكتوب بالفرنسيّة عن النّقد المكتوب بالعربيّة في الجزائر

يتركّز اهتمام هذه المقاربة على كيفيّة تلقّي المناهج الحداثيّة نقديًّا، وتأثيرها في الممارستَين النّقديّتين العربيّة والفرانكفونيّة، مع التّركيز بشكل خاصّ على مدى استيعاب النّقّاد والباحثين النّاطقين بالفرنسيّة لهذه المناهج. فمن الملاحظ أن تبنّي المناهج الحداثيّة في النّقد الجزائريّ قد تجلّى مبكّرًا عبر اللّغة العربيّة، رغم تأخّره نسبيًّا عن مسايرة الغرب زمنيًّا، إلّا أنّه تابع تطوّره باكرًا مقارنةً مع تخلّف النّقد المكتوب بالفرنسيّة في الجزائر، حيث ظلّ النّقّاد الفرانكفونيّون خلال الفترة نفسها مُنشغلِين بقضايا نقديّة تقليديّة، لم تتجاوز الأُطر الكلاسيكيّة، مثل كتاب " النّصّ الأدبيّ من أين؟ إلى أين؟ لعبد الملك مرتاض، و كتاب "مدخل إلى التّحليل البنيويّ للنّصوص" لكريستيان عاشور وأخريات...

وفي هذا السيّاق، يتأكّد الدّور المحوريّ الّذي لعبه النّقد الأكاديميّ المكتوب باللّغة العربيّة في إثراء الحوار النّقديّ ونشر المنهجيّات الحداثيّة، حيث امتدّ تأثيره إلى الأقسام الفرانكفونيّة. ويؤكّد أنّ هذا التّأثير تحقّق بفضل جهود أساتذة متمرّسين في العربيّة قدّموا محاضرات في أقسام الفرنسيّة، وأشرفوا على مناقشة أبحاث رائدة ساهمت في تجديد الخطاب النّقديّ باللّغة الفرنسيّة، وللتّدليل على ذلك "نُشير إلى رسالتَين مهمَّتَين أشرف عليهما الباحث دُراري عبد الرّزاق في قسم اللّغة الفرنسيّة بجامعة مولود معمري ؛ والموسومَتَين بـ : "[7]

- "Orientalisme et sexualité dans la nuit sacrée et l'enfant de sable de Tahar Benjelloun. Etude sémiotique et sémantique."[8]

وتأتي ترجمتها بالعربيّة كالتّالي: الاستشراق والجنسانيّة في "اللّيلة المقدّسة" و"طفل الرّمل" لطاهر بن جلّون: دراسة سيميائيّة ودلاليّة .

- "Crise de valeur et pratique sémiotique dans la femme adultère d'Albert Camus". [9]

والّتي ترجم على النّحو التّالي: أزمة القيم والممارسة السّيميائيّة في رواية "المرأة الزّانية" لألبير كامو .

ومن هنا يتبيّن أنّ المنجزات النّقديّة الّتي تُصنّف ضمن النّقد الأدبيّ الجزائريّ الأكاديميّ المكتوب بالفرنسيّة قد تأسّست في مرحلة ما بعد الاستقلال على التّلقّي النّقديّ غير المباشر، حيث تأثّرت بالحركة النّقديّة الجزائريّة المكتوبة بالعربيّة، والّتي نقلت بدورها آليات نقديّة غربيّة حديثة، وقد أدّى هذا التّفاعل إلى أوّل احتكاك بين النّقّاد المعرّبين والفرانكفونيّين في تاريخ البحث الأكاديميّ الجزائريّ، كما ساهمت الدّراسات الّتي أعدّها المعرّبون باللّغة الفرنسيّة في إثراء الحركة النّقديّة وتطويرها .

ومع ذلك، قبل الجزم بالحتميّة الّتي مَفادها اشتغال الممارسة النّقديّة المعتمدة على اللّغة الفرنسيّة ضمن الأُطر التّقليديّة الضّيّقة فقط، ينبغي لنا أن نتأمل بعض المحاولات الجادّة والمبادرات الإبداعيّة الّتي تمكّنت من الخروج عن هذا الإطار، حيث قدّمت قراءات مختلفة وأدوات تحليليّة متميّزة، ممّا يُثبت أنّ الإبداع النّقديّ قادر على اختراق حدود التّقاليد النّقديّة الرّاسخة، حتّى في السيّاقات الّتي تبدو فيها الهيمنة للنّمطيّة والنّظريّات المكرّسة، مثل "كتاب مدخل إلى التّحليل البنيويّ والّذي اشتركت في تأليفه طائفة من المدرّسات في قسم اللّغة الفرنسيّة بجامعة الجزائر "دليلة مرسلي، كريستيان عاشور، زينب بن بوعلي، نجاة خدّة، بوبة ثابتة"، ويتراوح الكتاب بين البسيط التّأسيسيّ لنظريّات جاكبسون وبروب وبارت وغريماس وهامون، وسحبها تطبيقيًّا على بعض النّماذج الأدبيّة "حكايات جزائريّة، نماذج لمحمد ديب"، ولمؤلّفات الكِتاب مُساهمات أخرى في الحُقول الألسنيّة والنّقديّة باللّغة الفرنسيّة"[10].

وقد شهدت الجامعة الجزائريّة، وعلى نطاق أوسع بين النّقّاد والباحثين المهتمّين بالأدب ونقده باللّغة العربيّة، تحوّلًا نقديًّا لافتًا حاول تجاوز المناهج التّقليديّة السّائدة، إلّا أنّ هذا التّحوّل واجه رفضًا واضحًا، خصوصًا في ظلّ المناخ الثّقافيّ السّائد في الجزائر خلال سبعينيّات وثمانينيّات القرن العشرين، الّذي كان لا يزال خاضعًا لهيمنة الرّؤى الإيديولوجيّة والمناهج الواقعيّة في النّقد الأدبيّ .

ففي تلك الفترة، كان النّقد الأدبيّ في الجزائر يُدار وفق أُطر تقليديّة غالبًا ما ارتبطت بواقع الخطاب السيّاسيّ والاجتماعيّ، ممّا جعل تبنّي مناهج نقديّة جديدة، مثل البنيويّة أو التّفكيكيّة أو السّيميائيّة، أمرًا يواجه تشكيكًا ورفضًا من قبل بعض الأوساط الأكاديميّة والنّقديّة المحافظة، فهذا الواقع أدّى إلى إحداث اضطراب في الوسط الأكاديميّ، نجم عنه صراع بين دعاة التّجديد الّذين سعوا إلى مواكبة التّطوّرات النّقديّة العالميّة، وبين المدافعين عن المناهج الواقعيّة والتّراثيّة الّتي كانت تُعتبر أكثر انسجامًا مع الخطاب الوطنيّ آنذاك، وبالتّالي، فإنّ محاولات تحديث الخطاب النّقديّ في الجزائر اصطدمت بتحديّات منهجيّة في كنف سيّاق اجتماعيّ يُؤطّره توجّه إيديولوجيّ مُعيّن، ممّا أبطأ من وتيرة التّحوّل، وفرضَ حوارًا نقديًّا طويلًا حول شرعيّة هذه المناهج الجديدة، ومدى ملاءمتها للرّاهن الثّقافيّ الجزائريّ .

وعليه كان الباحثون الّذين اشتغلوا على التّجديد في النّقد والثّورة على الطّرق التّقليديّة فيه ينحصرون في مجموعات محدودة جدًّا، وتجدهم يبحثون عن إمكانيّة نشر هذه البحوث، في ظلّ ظروف صَعبة جدًا، لم يكتب لها أن تطبع في الثّمانينيّات (ق20م) للمقاومة الشّديدة الشّرسة الّتي لقيها البحث السّيميائيّ في الجامعة الجزائريّة[11]. فالمتتبع لتاريخ النّقد الأدبيّ في الجزائر، يصل إلى حقيقة أنّ التّحديث النّقديّ واجه عقبات مؤسّساتيّة وثقافيّة أخّرت بشكل أو آخر النّضج في حقل النّقد، ومع ذلك، فإنّ استمرار اشتغال الباحثين رغم هذه الظّروف يُعتبر إشارة إلى إصرارهم على المساهمة في تطوير العمل النّقديّ، وهو ما يكون قد مهّد لاحقًا لتقبّل أكبر لهذه المناهج في العقود التّالية، فالنّقاش هنا يفتح الباب أيضًا لتساؤلات أوسع عن كيفيّة تعامل الجامعيّين العرب مع المناهج النّقديّة المستوردة، وإمكانيّة تطويعها لخدمة السيّاق النّقديّ المحليّ .

فعند تتبّعنا للمشهد النّقديّ الأكاديميّ الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة، نجد النّقد النّاطق باللّسان العربيّ يتقاطع مع النّقد النّاطق بالفرنسيّة في اشتغالها على المرجعيّات النّظريّة والمنهجيّة الغربيّة ذاتها، دون أن ننسى تخلف النّقد المكتوب بالفرنسيّة عنِ استيعاب مستجدّات المناهج النّقديّة المعاصرة، مثل النّقد اللّسانيّ والبنيويّة والسّيميائيّة ...، إلّا أنّه يتقاطع في الأخير مع النّقد المكتوب باللّغة العربيّة، من حيث تتشابه بعض الإشكاليّات ، عند استلهام المصادر النّظريّة نفسها مع الاشتغال النّظريّ في كليهما في الآن ذاته. غير أنّ ثمّة فارق جوهريّ يُلاحظ هنا وهو أنّه رغم تميّز النّقّاد الجزائريّين المتخصّصين في الأدب الفرنسيّ بإتقانهم العميق للّغة الفرنسيّة، إلّا أنّهم لم يتمكّنوا من الانتباه إلى النّقد النّسقيّ -مثلًا- ليستلهموا من مصادره ويُوظّفوه على سبيل مسايرتهم للحاصل النّقديّ الجديد، كما أنّنا نسجّل بأنّ هذه المناهج النّسقيّة قد طرحت جملة من الإشكاليّات المرتبطة بها، ويأتي على رأسها جوهريًّا إشكاليّة التّرجمة والمصطلح، ممّا أنشأ واقعًا مأزومًا في بعض جوانبه عند النّقّاد النّاطقين بالعربيّة، خاصّةً عند تعاملهم مع نظريّات المدرسة النّقديّة الفرنسيّة.

4 ـ انفتاح النّقد الأكاديميّ الفرانكفونيّ في الجزائر على الرّؤية الحداثيّة

يكشف كِتاب "مدخل إلى التّحليل البنيويّ للنّصوص"، والّذي اشتركت في تأليفه كريستيان عاشور ونجاة خدّة بمعيّة أخريات، لم يلق قبولًا عكس ما كان متوقّعًا من مردود يجعل من النّقّاد الّذين يكتبون بالفرنسيّة أن ينتبهوا إلى هذا النّوع من النّقد النّسقيّ الجديد في أنموذج المنهج البنيويّ، ولكن لم يحدث ذلك لاعتبارات رأى أحد النّقّاد أنّها كانت تُنقص هذا الكتاب في أطروحته، متمثّلةً في نقاط علميّة تفصيليّة متعلّقة بمسائل معياريّة أو مرجعيّة ضروريّة، لتتمكّن من إيجاد مكان مقبول لهذا التّيّار النّقديّ، أو بمعنى آخر، يؤكّد رشيد بن مالك أنّ الفهم الدّقيق والمنهجيّ لأيّ تيّار نقديّ، بما في ذلك التّحليل البنيويّ، يتطلّب تحديد نقاط أساسيّة تُشير إلى موقعه ضمن سيّاق النّظريّات النّقديّة الأوسع، ويضيف بن مالك أنّ هذه التيّارات النّقديّة تأتي في الامتداد الطّبيعيّ للنّظريّات النّقديّة الّتي اتّخذت النّصّ موضوعًا لدراستها، هذا يعني أنّ التّحليل البنيويّ، كغيره من المناهج النّقديّة الّتي تركز على النّصّ، هو جزء من تطوّر تاريخيّ للنّظريّات النّقديّة[12]، لذلك، يجب أن يُعرض ويُفسّر في سيّاقه التّطوّريّ، مع الإشارة إلى أُسسه ومفاهيمه الّتي تميّزه عن غيره، وتُحدّد موقعه بين المناهج الأخرى الّتي اهتمّت بدراسة النّصّ الأدبيّ .

أمّا على المستوى النّظريّ، وحسب ما جاء في الدّراسة الدّاخليّة للنّصوص في هذا المؤلَّف، يعيب على النّاقدتين التّعامل مع النّظريّات النّقديّة الغربيّة دونَ الفَصل في المرجعيّات والتّيّارات المؤسّسة لكلّ مِنها، فيعقب بقوله: "نلقى في هذا الفصل دراسةً مستفيضة لنظريّات نقديّة قدّمت وكأنَّ الواحدةَ مِنها امتدادٌ للأخرى دون أن تعقد أهميّة في ذلك إلى الفروقات الجوهريّة بين هذا التّيّار أو ذاك، ولا إلى طبيعة الإشكاليّات المطروحة. وفي كلّ مرّة يصطدم القارئ بعناوين لا تلقى ما يبرّرها فيما سبق ولا فيما سيلحق"[13]، وانطلاقا من هذا الموقف كان لزامًا على أيّ ناقد مُراعاة الخَلفيّات الفَلسفيّة والمرجعيّات المعرفيّة القائمة خلف كلّ نظريّة نقديّة، ومنه مراعاة التّرتيب التّاريخيّ لهذه النّظريّات، حتّى تستقيم الدّراسة النّقديّة، ويتجنب بذلك الوقوع في محظور الخلط المنهجيّ .

فهذه المحاولات النّقديّة، رغم قلّة إنتاجها العلميّ ومآخذها، لا تمنعنا من الإشارة إلى انفتاح النّقد الأكاديميّ الفرانكفونيّ على المناهج النّسقيّة، "فمن خلال تتبّع البحوث والأوراق العلميّة الصّادرة عن أقسام اللّغة الفرنسيّة في الجامعات الجزائريّة خلال السّنوات الأخيرة، يُلاحَظ وجود أعمال بحثيّة واعدة تتحدّى النّقد الاجتماعيّ التّقليديّ وتُقدّم مقاربات نقديّة جديدة"[14]، حيث يمكن ملاحظة تحوّل جوهريّ في المنهجيّات النّقديّة المعاصرة، نظرا لانتقال بؤرة الاهتمام من المقاربات الخارجيّة الّتي تركّز على السيّاقات الموضوعيّة الملموسة كالهويّة والاختلاف، وأشكال التّعبير السيّاسيّ مثل الاحتجاج والعنف، إلى تحليلات نظريّة عميقة تنبني على دراسة البنى الدّاخلية للنّصوص والإبداعات الثّقافيّة المختلفة.

ففي وقت سابق، كانت التّحليلات تنطلق من رؤى خارجيّة تُعنى بالتّفاعل بين النّصّ والواقع الاجتماعيّ أو السيّاسيّ، كدراسة المسائل المتعلّقة بالهُويّة من منظور مرجعيّ، أو تحليل الاختلاف بوصفه تعبيرًا عن التّعدّديّة أو الصّراع. كما حظيت أشكال مثل الاحتجاج والعنف باهتمام كبير بوصفها أدوات تعكس أسباب الرّفض في سيّاقات محدّدة، أمّا اليوم، فقد اتّجه النّقد إلى تفكيك البنى الدّاخليّة للنّصوص عبر مقاربات نسقيّة كالبنيويّة الّتي تكشف عن النّسق الخفيّ للعلاقات بين العناصر، أو مفهوم الكتابة الّذي يُعيد تعريف النّصّ بوصفه فضاءً مفتوحًا على التّأويل، بعيدًا عن سلطة المؤلّف. كما برزت تحليلات تركّز على تشكيل الفضاءات النّصيّة ودور الرّموز في بناء المعنى، حيث يُنظر إلى العمل الفنّيّ أو الأدبيّ كنسيج من الإشارات والدّلالات الّتي تتجاوز المضمون الظّاهريّ، فهذا التّحوّل الّذي انتقل - هو الآخر- إلى السّاحة الأكاديميّة يعكس رغبة في تعميق الفهم النّظريّ للأعمال، والكشف عن آلياتها الدّاخلية المعقّدة، بدل الاقتصار على قراءتها انطلاقًا من سيّاقاتها الخارجيّة. وهو ما يُظهر تطوّرًا في الأدوات النّقديّة نحو مزيد من التّعقيد والتّركيب، مع إيلاء أهميّة أكبر للتّفاعل بين الشّكل والمضمون، والانزيّاحات الدّلاليّة الّتي تُنتجها البنى النّصيّة نفسها[15].

وتقترح النّاقدة كريستيان عاشور رؤية مغايرة حول هذا الانفتاح النّقديّ الّذي باشره النّشاط الجامعيّ أيضًا، بالخروج من التّركيز على السّيّاق إلى التّركيز على النّسق، رغم ما حقّقه من نتائج إيجابيّة، يحتاج إلى مراجعة فيما يتعلّق بالأدب الجزائريّ المكتوب بالفرنسيّة، فعلى الرّغم من ترسيخ اتجاه منهجيّ يعتمد على تعدّد المناهج النّقديّة الغربيّة في الدّراسات الأكاديميّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة، مثل تحليل السّرد والشّعريّة والمنهج السّيميائيّ، إلّا أنّ عاشور "تؤكّد أنّ هذا الأدب ما زال بحاجة ماسّة إلى مقاربة اجتماعيّة تاريخيّة، تعتبر هذه الخطوة ضروريّة لإعادة ربط الأدب بفضائه

الوطنيّ الحقيقيّ، بعيدًا عن الاكتفاء بالتّحليلات المنهجيّة البحتة، ونظرًا للتّهميش الّذي طاله عبر الدّراسات الكولونياليّة، ولطابع الأدب الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة حسب ما تصرّح به، إذ ترى أنّ هذا النّهج امتدادٌ للبحث الّذي بدأه جان سيناك في فجر السّتينيّات (ق20م)، والّذي يرتكز على البُعد الاجتماعيّ والتّاريخيّ"[16].

وتوضّح كريستيان عاشور أنّ المنهج الاجتماعيّ في النّقد يهدف إلى دمج عبارات النّصّ مع سياقه الخارجيّ، وهذا ما يضفي على دراسة اللّغة بعدًا جديدًا يتّسم بالموضوعيّة والتّحيّز العاطفيّ الأقلّ، وهو ما يمكن تسميته بالمنهج السّوسيولغويّ، وتضيف أن الأبحاث المعاصرة تستخدم القراءة النّفسيّة بأبعادها المتعدّدة، حيث يطوّر علم اجتماع القراءة ليأخذ في الاعتبار المجتمعات المتداخلة في النّصوص، وفي هذا السّياق تقول : "لا يجوز لنا أن ننتظر إحياء الثّقافة الوطنيّة الّتي قام النّظام الاستعماريّ باجتثاثها من جذورها... فالأعمال النّقديّة الحاليّة لا تعتمد على المناهج النّقديّة الفعليّة، ولا تُطبّقها لتفكيك النّصّ، ممّا يؤدّي إلى إذابة الأدب المغاربيّ في بوتقة الثّقافة العالميّة والنّفسيّة... إذا استمر النّقد المحايد في تعامله مع الأدب المغاربيّ، فلا بدّ من استبداله بنقدٍ وطنيّ، وشمال إفريقيّ، وأجنبيّ أيضاً، يقدّم قراءات مغايرة للأدب الجزائريّ"[17]، وفي هذا تجد للجامعة الجزائريّة دورًا بالغًا في الحفاظ على هويّة الأدب من خلال قوة التّعامل مع النّصّ الأدبيّ بخصوصيّة نقديّة، حيث يُلام النّقد من طرف بعض الباحثين لعدم انخراطه في إعادة بناء الهويّة الثّقافيّة الممزّقة، إذ ترى أنّ النّقد الحالي يُهمل الخصوصيّة المحلّيّة، ويذوب الأدب في خطابات عالميّة مجرّدة، ممّا يفقده أصالته، كما يطالب بتبنّي نقدٍ أكثر التزاماً بالهويّة الوطنيّة والإقليميّة، مع الانفتاح على قراءات أجنبيّة جادّة تُثري النّصّ دون أن تطمس خصوصيّته .

وعليه فالنّاقدة في حديثها عن الآليات النّقديّة المناسبة لمقاربة الأدب الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة على أنّها دعوة إلى تبني رؤية نقديّة متوازنة تجمع بين التّحليل الدّاخليّ للنّصّ الأدبيّ بكلّ أبعاده النّسقيّة من حيث التّركيب الجماليّ والفنّيّ وغيرهما، ودراسة السيّاقات الخارجيّة التّاريخيّة والاجتماعيّة والسيّاسيّة الّتي أحاطت بنشوء هذا الأدب وتطوّره. فالنّصّ يلمّح إلى ضرورة الخروج من النّظرة الأحاديّة الّتي هيمنت على الدّراسات الكولونياليّة، والّتي اختزلت الأدب الجزائريّ المكتوب بالفرنسيّة في كونه مجرد امتداد للتّأثير الكولونياليّ، متنكرةً للخصوصيّة الإبداعيّة للمبدع الجزائريّ وللدّور الفاعل للفكر الجماعيّ للمجتمع الجزائريّ في تشكيل هذا الإنتاج الأدبيّ .

5 ـ تطلّعات النّقد الأكاديميّ المكتوب بالفرنسيّة وخصوصيّة النّصّ الأدبيّ في الجزائر

وفي هذا الصّدد، تبرز حاجة النّصّ إلى منهجيّة نقديّة مرنة تستوعب تعدّديّة القراءات وتتفاعل مع المناهج النّقديّة المعاصرة، خاصّة تلك الّتي تدمج بين التّحليل النّصيّ والسّوسيوثقافيّ، فالنّقد الاجتماعيّ بمفهومه الإجرائيّ الحديث لا ينبغي أن يقتصر على استنساخ المقولات الجاهزة الّتي ورثتها المرحلة الاستعماريّة، بل عليه أن يعيد الاعتبار للبعد المجتمعيّ الحيويّ في تشكيل الأدب، معتبرًا اللّغة الأدبيّة فعلًا إبداعيًّا ينبثق من رحم الواقع الاجتماعيّ ويتفاعل مع تحوّلاته.

هذا المنهج يتطلّب وعيًا نقديًّا قادرًا على تفكيك الخطاب الاستعماريّ الّذي حاول طمس الهويّة الإبداعيّة الجزائريّة، مع التّركيز على كيفيّة استعمال الكاتب والدّارس الجزائريّ للّغة الفرنسيّة كأداة وظيفيّة تخدم رؤيته الفنّيّة وقناعاته الفكريّة، وهي قناعة لا تنبغي إلّا إذا تبنّاها العامل الأكاديميّ لما تتطلّبه من معرفة علميّة كبيرة تكون في مستوى التّحدّي، لقدرته على تحويلها إلى وسيلة لمقاومة التّهميش وإثبات الذّات في سيّاق ما بعد الاستعمار. كما يتطلّب الأمر إيلاء الاهتمام للتّفاعل بين العناصر المكوّنة لمحمول النّصّ الأدبيّ الجزائريّ، استنادا إلى قدرة استخدام النّخبة المثقّفة للّغة المستعارة استخداما في إطار وظيفيّتها التّعبيريّة لتصوير انشغالات المجتمع الجزائريّ وتطلّعاته .

وبالتّالي، فإنّ المقاربة النّقديّة المثلى لهذا الأدب يجب أن تنطلق من رؤية شموليّة تُزاوج بين تحليل البنى النّصيّة وقراءة السيّاقات التّاريخيّة والاجتماعيّة، مع تفادي الوقوع في فخّ النّموذج الجاهز الّذي يختزل الأدب في إطار التّأثير الأحاديّ. بل ينبغي للنّقد أن يكشف عن الديناميّات الخلّاقة الّتي يتمّ من خلالها استيعاب اللّغة الفرنسيّة وإعادة تشكيلها لتعبّر عن التّجربة الجزائريّة بكلّ تعقيداتها، ممّا يؤكّد أصالة هذا الأدب وقدرته على توظيف الأدوات اللّغوية المتوفّرة لخدمة رؤية إبداعيّة مستقلة، ولو بلغة مغايرة .

ويبدو أنّ هذه المقاربة المنهجيّة الّتي تقدّمها كريستيان عاشور تستند إلى أطر نقديّة غربيّة في قراءتها للأعمال الأدبيّة المغاربيّة، إذ نجد أنّ "غي ريجرت نجح بشكل مثاليّ في التّوفيق بين ما كان يسمّى سابقًا بالنّقد الخارجيّ والنّقد الدّاخليّ للعمل الأدبيّ، انطلاقا من دراسة أسلوبيّة لكتابات الصّفريوي، والّتي قد تبدو كلاسيكيّة تماما، فقد نجح في الرّبط من خلال تحليل نصّيّ دقيق بين الإيقاع اللّفظيّ ونبض الأشياء، وبين الحركة الدّاخليّة للكتاب والحركة الخارجيّة للعالم"[18]؛ وعليه نتبيّن أنّه وبالرغم من طول عمر الأدب المكتوب باللّغة الفرنسيّة والّذي نشأ في بيئة وظروف تاريخيّة وثقافيّة مغايرة لما هي عليه اليوم، واستفاد من التّأطير الأدبيّ الغربيّ، إلّا أنّه يفتقد هو الآخر مثل نظيره المكتوب باللّغة العربيّة إلى نظريّة نقديّة خاصّة، "فإنّ الخِطاب النّقديّ المغاربيّ ليس قادرًا بعد على دعم الإنتاج الأدبيّ"[19]؛ وليس ثمّة ممارسات نقديّة عربيّة فريدة خارج أطر التّأثير النّقديّ الغربيّ .

وبناءً على ما سبق يمكننا القول أنّ النّقد الجزائريّ المكتوب بالفرنسيّة عموما والأكاديميّ منه خصوصا، والّذي وُلد ونمَا في سيّاقات تاريخيّة وثقافيّة مختلفة عن بيئته الأصليّة، واستفاد من التّأطير النّقديّ الغربيّ، لا يزال يفتقر إلى نظريّة نقديّة نابعة من خصوصيّته. هذا يطرح تساؤلاً حول مدى قدرة النّظريّات النّقديّة المستوردة على استيعاب وتفسير التّعقيدات والخصوصيّات الثّقافيّة للخطاب الأدبيّ المحليّ، فالتّنظير الغربيّ الحداثيّ، على الرّغم من ثرائه وتطوّره، قد لا يكون كافيًا لاحتواء الأبعاد الفريدة للأدب المغاربيّ عموما، والجزائريّ خصوصا، سواء كان مكتوبًا بالفرنسيّة أو العربيّة .

الأمر يصبح أكثر وضوحًا عندما يتطرّق الاقتباس إلى الأدب المكتوب بالعربيّة، فغياب نظريّة نقديّة خاصّة به يؤكّد على أنّ الخطاب النّقديّ في المنطقة لم يتمكّن بعد من التّحرّر من هيمنة المرجعيّات الغربيّة، هذا لا يعني بالضّرورة ضعفه، بل يشير إلى أنّ الأدوات التّحليليّة والمفاهيم النّقديّة المستخدمة غالبًا ما تكون مُستعارة ولا تنبع من خصوصيّة التّجربة الأدبيّة والنّقديّة الجزائريّة، وبالتّالي، قد تفشل هذه الأدوات في كشف كامل الأبعاد الجماليّة والفكريّة لهذه النّصوص، وهذا ما استدعتِ الجامعة الجزائريّة في العقود الثّلاثة الأخيرة أن تولي عنايتها بالبحث في مجال النّقد المتخصّص عمّا يكْفُل أكثر بخصوصيّة النّصّ الأدبيّ الجزائريّ، في أقسام اللّغة العربيّة كما أقسام اللّغة الفرنسيّة وآدابها، على منوال ما تعمل عليه كُبريات مخابر البحث في هذا الشّأن، و هذا "لا ينفي وجود أطروحات جامعيّة حول الأدب الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة، قُدِّمت هنا وهناك، لباحثين جزائريّين، ولا سيما في العقود الأخيرة، ولكن ظلّ معظمها غير منشور، كما جرت في بعض المناسبات ومناقشات متفرّقة على صفحات الجرائد والمجلّات، بأقلام كُتّاب جزائريّين حول قضايا أدبيّة وفكريّة معيّنة"[20] .

وتأسيسًا على ذلك نقول أنّ "الخِطاب النّقديّ الجزائريّ ليس قادرًا بعد على دعم الإنتاج الأدبيّ بمعزل عن الإشراف الأكاديميّ المتخصّص الّذي يُكسبه صبغة منهجيّة، ويُضفي عليه طابعا علميًّا قابلًا للبحث المُحَسّن، ذلك لأنّ مهمّته الأساسيّة تتّضح أكثر بما يقدّمه من إجراءات، تسمح للنّقد أن يُساعد في فهم الأعمال الأدبيّة، وتقيّمها، وتوجيه مسار تطوّرها بشكل أفضل ممّا هو عليه، فإذا كان النّقد غير قادر على القيام بذلك بفاعليّة، فإنّه يُعيق نضوج الأدب ويحدّ من إمكانيّاته. هذا العجز قد يكون ناتجًا عن عدّة عوامل .

خاتمة :

يتبيّن من خلال هذا المبحث أنّ الخطاب النّقديّ الأكاديميّ الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة قد مرّ بتحوّلات كبيرة منذ الاستقلال، حيث تأثّر بالسيّاق التّاريخيّ والسيّاسيّ واللّغوي للجزائر. بدأ هذا الخطاب متأثّرًا بالمناهج الفرنسيّة التّقليديّة، ثمّ حاول أن يجد مساره الخاص بين ثنائيّة اللّغة العربيّة والفرنسيّة، وبين الرّغبة في استعادة الهويّة الوطنيّة ومواكبة المناهج النّقديّة الحديثة .

على الرّغم من التّحدّيات الّتي واجهها، مثل غياب الوحدة المنهجيّة وتأخر تبني المناهج الحداثيّة مقارنة بالنّقد المكتوب بالعربيّة، إلّا أنّه شهد في السّنوات الأخيرة انفتاحًا على المناهج النّقديّة الغربيّة مثل البنيويّة والسّيميائيّة، ممّا يعكس تحوّلًا نحو مقاربات أكثر تعقيدًا وتنوّعًا. ومع ذلك، لا يزال هناك حاجة إلى تطوير نظريّة نقديّة جزائريّة خاصّة تستوعب الخصوصيّات المحليّة وتتجاوز التّأثيرات الاستعماريّة .

في النّهاية، يمكن القول إنّ مستقبل النّقد الأدبيّ الجزائريّ المكتوب بالفرنسيّة يكمن في قدرته على الجمع بين العمق النّظريّ والخصوصيّة الثّقافيّة، مع الاستفادة من التّعدديّة المنهجيّة لتعزيز فهم أعمق للأدب الجزائريّ وإثراء المشهد النّقديّ بشكل عامّ .

-. قائمة الإحالات:

1- Cristiane Chaulet-Achour, Les littératures francophones dans les universités algérienne et françaises. Enjeux et opacités, Transmission et théories des littératures francophones, Presses Universitaires de Bordeaux, Jasor, France, 28/04/2021, p53-75.

2- المرجع نفسه، ص53- 75.

3 -Aouiche Houda; Benazzouz Nadjiba, Est-il facile d'enseigner le texte littéraire à l'université? Qirâ'ât review, Université Mohamed Khider de Biskra, volume:14, N°:01, Algérie, 15/12/2022, p1153.

4- يُنظر: المرجع السّابق، ص53-75.

5-Jean Déjeux, Bibliographie méthodique et critique de la littérature algérienne d'expression française (1945-1970), Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, N°:10, France, 1971, p168.

6- رشيد بن مالك، قراءة في النّقد الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة، الجزائر، https://www.benhedouga.com .

7- المرجع نفسه .

8-Djaoud Smail, Orientalisme et sexualité dans la nuit sacrée et l'enfant de sable de Tahar Benjelloun. Etude sémiotique et sémantique (Magister), Algérie, soutenu le :19/11/2001.

9-Messas Samia, Crise de valeur et pratique sémiotique dans la femme adultère d'Albert Camus (Magister), Algérie, soutenu le :10/11/2001.

10- يوسف وغليسي، النّقد الجزائريّ المعاصر من اللّانسونيّة إلى الألسنيّة، إصدارات رابطة إبداع الثّقافيّة، الجزائر، 2002، ص127– 128.

11- يُنظر: يوسف وغليسي، النّقد الجزائريّ المعاصر من اللّانسونيّة إلى الألسنيّة، ص 128.

12- يُنظر: رشيد بن مالك، قراءة في النّقد الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة، الجزائر، https://www.benhedouga.com .

13- رشيد بن مالك، قراءة في النّقد الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة، الجزائر، https://www.benhedouga.com .

14 -Georges Maurand, la critique a tout à gagner de la multiplicité des approches, Horizons maghrébins, N°:17, France, 1991, p07.

.08- يُنظر: المرجع نفسه، ص15

16- المرجع نفسه، ص07.

17 -Cristiane Chaulet-Achour, la critique littéraire et le discours journalistique, Horizons maghrébins, N°:17, France, 1991, p17-18

18- المرجع السّابق، ص09-10.

19 - Salha Habib, critique de la critique maghrébine, Horizon maghrébins, N°:17, France, 1991, p72.

20- أحمد منوّر، الأدب الجزائريّ باللّسان الفرنسيّ نشأته وتطوّره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ط2، الجزائر، 2017، ص116.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد منوّر، الأدب الجزائريّ باللّسان الفرنسيّ نشأته وتطوّره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ط2، الجزائر، 2017.
2. رشيد بن مالك، قراءة في النّقد الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة، الجزائر، https://www.benhedouga.com .
3. يوسف وغليسي، النّقد الجزائريّ المعاصر من اللّانسونيّة إلى الألسنيّة، إصدارات رابطة إبداع الثّقافيّة، الجزائر، 2002.

4. Cristiane Chaulet-Achour, la critique littéraire et le discours journalistique, Horizons maghrébins, N°:17, France, 1991.
5. Cristiane Chaulet-Achour, Les littératures francophones dans les universités algérienne et françaises. Enjeux et opacités, Transmission et théories des littératures francophones, Presses Universitaires de Bordeaux, Jasor, France, 28/04/2021.
6. Salha Habib, critique de la critique maghrébine, Horizon maghrébins, N°:17, France, 1991.
7. -Aouiche Houda; Benazzouz Nadjiba, Est-il facile d'enseigner le texte littéraire à l'université? Qirâ'ât review, Université Mohamed Khider de Biskra, volume:14, N°:01, Algérie, 15/12/2022, p1153.
8. -Djaoud Smail, Orientalisme et sexualité dans la nuit sacrée et l'enfant de sable de Tahar Benjelloun. Etude sémiotique et sémantique (Magister), Algérie, soutenu le :19/11/2001.
9. Georges Maurand, la critique a tout à gagner de la multiplicité des approches, Horizons maghrébins, N°:17, France, 1991.
10. -Jean Déjeux, Bibliographie méthodique et critique de la littérature algérienne d'expression française (1945-1970), Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, N°:10, France, 1971.
11. -Messas Samia, Crise de valeur et pratique sémiotique dans la femme adultère d'Albert Camus (Magister), Algérie, soutenu le :10/11/2001.